الدكتور بيرم كمال

استاذ محاضر جامعة المسيلة

المحاضرة 9

فعالية الأوقاف في مجتمع الجزائرالعثمانية

مدخل

مثل الوقف منذ عهد فترات الإسلام الأولى احد الأساسات التي حافظت على توازن المجتمع الإسلامي وقيمه الإنسانية وشكل لبنة هامة في استمرار الفعل الجماعي التضامني ورغم قلة ما كتب على الوقف في البلاد الإسلامية الا انه كان أقوى في نفوس المسلمين الذين استلهموا من القران والسنة ما يزيد في فعلهم للخيرات وحماية فئات الأمة من العوز والنقص.

قال الله تعالى :" لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون " وقوله صلى الله عليه وسلم :" إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " من هذه الاية وقول الرسول الكريم اصبح الوقف تقليد إسلاميا شكل إحدى مظاهر الحضارة الإسلامية ،وشكل ظاهرة اجتماعية عرفتها الجزائر كسائر الدول الإسلامية منذ فترات سابقة للحكم العثماني.

والوقف ملك لجماعة المسلمين ، يتكون من صدقات المحسنين ليعم نفعه غلى ذوي الحاجة حسب متطلبات المجتمع ، و قد كان المسجد الذي بناه الرسول صلى الله عليه وسلم أول وقف في الإسلام ، واقبل الصحابة و المسلمون من بعده على تغذية هذه المؤسسة التي عمت خدماتها و شملت عامة الناس ، فكان ما يقدمه المحسنون لمؤسسة الوقف مكملا و معضدا لما يقوم به بيت المال المسلمين ، و قد اقتضى تعاظم أملاك الوقف ، واتساع مجالات خدماتها ، إلى أن تنشأ لها إدارة خاصة بها تعمل تحت نظر الدولة ، و لكنها في نفس الوقت مستقلة عنها .

و إذا كان الوقف العام قد بدأ ببناء المساجد في الدول الإسلامية ، فانه اتسع فيما بعد ليمول النشاط العلمي و الدراسي سواء في المساجد أو في المدارس التي أنشأت حولها لاستقبال العلماء و الطلبة ، و حبس المحسنون عقاراتهم على الخدمات العلمية مثل نسخ الكتب و إنشاء المكتبات العامة ، و على الخدمات الغذائية و الصحية للطلبة و للفقراء و المساكين و أبناء السبيل ، وفي هذه المداخلة المتواضعة نقف على بعض محطات تطور الوقف بالجزائر.

-الأوقاف في الجزائر خلال الفترة العثمانية :

شهدت الفترة العثمانية في الجزائر انتشار واسع الأوقاف من حيث انواعها وتوزيعها في مختلف أنحاء البلد ، بحيث أصبحت الأوقاف تشتمل على الأملاك العقارية و الأراضي الزراعية و تضم العديد من الدكاكين و الفنادق و الأفران و الضيعات و المزارع و البساتين و السواقي و العيون و المطاحن ، أما عوائد الأوقاف كانت تساهم في نفقات الدراسة و سد حاجة طلبة العلم و تتكفل بأجور المدرسين و القائمين على شؤون العبادة بالمساجد و الزوايا و المدارس و توفر وسائل الصيانة لهذه الأماكن .كما كانت موارد الأوقاف خير مساعد على صيانة بعض المرافق العامة مثل الطرق و الآبار و العيون و السواقي و الجسور و الحصون ، و اتسع مجال نشاط الأوقاف إلى تخفيف شقاء المعوزين لما كانت تقدمه لهم من صدقات و إعانات مختلفة . مسالة الوقف في المجتمع الجزائري كانت موجودة قبل مجيء الأتراك إلى الجزائر، وتعود الى فترات سابقة ارتبطت بظهور الإسلام وتطور مؤسساته ومجتمعه وبالتالي فهي ظاهرة اجتماعية مرتبطة بعلاقة الجزائريين بدين الإسلام، وإذا كنا نجهل بعضها قبل الأتراك إلا أننا تسجل عدة أمور وقفية مثل مدرسة ومسجد "سيدي أبي مدين" بتلمسان والتي يرجع تاريخها إلى عام 906 هـ / 1500 م حيث توزع أوقاف "أبي مدين" بشيء من التفصيل من خلال بعض وثائقها.كما وجدت أوقاف الجامع الأعظم بالجزائر العاصمة، حيث تعود أقدم وثيقة وقفية تابعة له إلى عام 947هـ/ 1540 م.

ومن عوامل انتشار الأوقاف في العهد العثماني:

1-تشجيع السلاطين العثمانيين للوقف منذ أن اقر السلطان بايزيد المعروف بالتقي حق الأوقاف في الدولة العثمانية.

2-حصانة ومناعة الوقف عند العثمانيين والتي أبعدت عنها لنظار الطامعين وجعلتها في مأمن من الضرائب والمصادرات.

3-اجماع العلماء على الإفتاء على المذهب الحنفي الذي يقر ويشجع الوقف وقد أشار الى ذلك حمدان بن عثمان خوجة في كتابه المرآة حيث قال:أن الفقهاء قد اجمعوا على العمل بالمذهب الحنفي الذي يجوز جمع الهبات المشروطة ليكثروا من مردود الهدايا لصالح الفقراء".

4-تحول الأوقاف الى مؤسسات رعاية اجتماعية ومراكز تعليمية ودينية.

و قد كان الوقف الخيري (الوقف العام) يتوزع على مؤسسات خيرية لها صفة دينية و شخصية قانونية ووضع إداري خاص .

وضعية الاوقاف خلال العهد العثماني

تميزت وضعية الأوقاف في أواخر العهد العثماني بعدة خصائص نوجزها فيما يلي[1]:

1-كانت مسالة انتشار الأوقاف بالجزائر فترة الحكم العثماني قد ارتبطت بعض الشئ بتشجيع الأتراك للطرق الصوفية والزوايا بالجزائر أواخر القرن التاسع الهجري وحتى مستهل القرن الثالث عشر الهجري.
2-تنوع الأوقاف وخدمتها لمختلف مناحي الحياة، فقد أصبحت تشتمل على الأملاك العقارية، الأراضي الزراعية، الدكاكين، الفنادق، أفران الخبز، العيون والسواقي، الحنايا والصهاريج، أفران معالجة الجير، الضيعات، المزارع، البساتين، الحدائق،...
3-تميّزت الإدارة الوقفية في العهد العثماني بكونها محلية لها جهاز إداري مستقل محدد الصلاحيات، بإشراف مميز وكفاءة القائمين عليه. وتجدر الإشارة إلى أن الأوقاف في العهد العثماني كان لها عدة أدوار تجسدت في المجالات التي كان ينفق فيها ريعها والتي منها[2]:
4-الإنفاق على طلبة العلم والعلماء رعاية شؤون الفقراء والمحتاجين تمكين المستضعفين من حقوقهم نتيجة الظلم والتعسف في الأحكام رعاية شؤون القصر والعجزة وتوفير مصادر الرزق لهم رعاية العائلة الجزائرية وتعزيز تماسكها وحفظ حقوق الورثة تمويل صيانة المرافق العامة وتعاهدها بالرعاية إنشاء وترميم الثكنات والتحصينات المختلفة.

أوقاف المؤسسات الخيرية في العهد العثماني

قد تنوعت الأوقاف بالجزائر في طبيعتها)عام وخاص) وفي مؤسساتها حيث نجد:

1-أوقاف الحرمين الشريفين: أنشأت هذه المؤسسة الخيرية بغية تمكين الجزائريين آنذاك من وقف الكثير من ممتلكاتهم داخل المدينة (الجزائر العاصمة) وخارجها، مما جعلها في صدارة المؤسسات الخيرية من حيث عدد الأملاك التي تعود إليها أو الأعمال الخيرية التي كانت تقوم بها، فقد كانت تقدم الإعانات لأهالي الحرمين الشريفين المقيمين بالجزائر أو المارّين بها (بعد التأكد من صحة انتسابهم للأماكن المقدسة)، وتتكفل بإرسال حصة من مداخيلها إلى فقراء الحرمين الشريفين في مطلع كل سنتين عن طريق مبعوث شريف مكة، أو بواسطة أمير ركب الحجاز، كما أوكل إليها مهمة حفظ الأمانات والإنفاق على ثلاثة مساجد حنفية داخل مدينة الجزائر[3]. وكانت هذه المؤسسة تشرف على ثلاثة أرباع الأوقاف كلها[4]، حيث وردت عدة تقارير في بداية العهد الاستعماري حول عدد الأملاك الوقفية التي كانت تابعة لمؤسسة الحرمين الشريفين،نذكر منها ما جاء في تقرير ديفوdevoult في المجلة

---

[1] ناصر سعيدوني، " تاريخ الوقف ودوره الاجتماعي والاقتصادي"، الجزائر: دورة إدارة الأوقاف الاسلامية بالجزائر، 1999،

[2] ناصر الدين سعيدوني، "تاريخ..."، مرجع سابق، ص4.

[3] ناصر الدين سعيدوني، دراسات في الملكية العقارية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر، 1986، ص 84.
وانظر أيضا:

J.Busson jensens, contribution à l'étude des habus publique Alg doctorat en droit, ALGERIE: 1950, p27

ibid, p259. [4]

الافريقية عدد 1867 ص 14-15 ان هناك اكثر من 840 منزل و252 دكان و33مخزن و11فرن و6 طاحونات و57 بستان و72غرفة و62ضيعة وكان مجموع العقارات التي هي تابعة لمؤسسة الحرمين 1357 عقار.

والجدير بالذكر ان مؤسسة الحرمين كانت لها سمة تخفيف البؤس على الفقراء وكانت تتعهد بالخدمةالمتعلقة بالمسجد فضلا عن العون المقدم لكل منتسب **لمؤسسة الحرمين**، وكانت تشترك في هذا التكافل الاجتماعي كل من مدن البليدة التي قدمت سنة 1842 ما قيمته ريال بوجو 866 ووهران سنة 1829 التي قدمت 1500 بوجووقسنطينة التي قدمت سنة 1825 ما قيمته 355 ريال بوجو.

2-أوقاف مؤسسة سبل الخيرات:

مؤسس هذه المؤسسة الخيرية هو "شعبان خوجة التركي " سنة 999هـ/1584م، وكانت تشرف على ثمانية مساجد حنفية (الجامع الجديد، جامع سفير وزاويته، جامع دار القاضي، مسجد كتشاوة، جامع شعبان باشا، جامع الشبارلية، جامع حسين داي، مسجد علي خوجة الموجود بحصن القصبة..)[1] كما كانت تشرف على عدة مشاريع خيرية عامة، كإصلاح الطرقات، وإجراء القنوات للري، إعانة المنكوبين وذوي العاهات، تشييد المعاهد العلمية، شراء الكتب ولوازم طلبة العلم،...[2]

3-**أوقاف المسجد الأعظم:**يعود تاريخ الجامع الأعظم الى 1018م/409ه وتزيد مساحته عن 2000م اضافة الى ملحقات كالجنينة والغرف. ومن العائلات التي تولت الفتوى على المذهب المالكي فيه عائلة قدورة.

كان هذا المسجد يعرف نشاطا قضائيا، دينيا، تعليميا، اجتماعيا، وسياسيا مهما جدا في العهد العثماني، إلى درجة أنه غطى أنشطة كل الجوامع الأخرى التي بناها الولاة العثمانيون أنفسهم، والتي تجاوزت حسب أحد المؤرخين أكثر من مائة جامع أواخر القرن السادس عشر[3]، ثم إن إدارة الجامع الأعظم كانت مستقلة، ومداخيل كراء أحباسها ساعدها على أداء وظائفها المتعددة.

وقد ذكر في أحد التقارير الفرنسية أن أوقاف الجامع الأعظم كانت تحتوي على555وقفا منها :125 منزلا، 39 حانوتا (دكانا)، 3 أفران، 19 بستانا، 107 إيرادا[4]، وكان يستفيد من مردود أوقافه مجموعة كبيرة من رجال تتألف في أغلب الأحيان من: إمامين، 19 مدرسا، 18 مؤذنا، 8 حزابين، 13 قيما[5].وكانت إيراداته

1-انظر أيضا: ناصر الدين سعيدوني، دراسات في التاريخ العثماني...، ، ص 88.والنظام المالي في العهد العثماني صص 146.147

[2] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر ، ص 424، 425 (بتصرف)

[3] Devolux,"les édefices religieux de l'ancien Alger", revue africaine (R.A), 1862, pp371-372 **نقلا عن :ناصر الدين سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، ص 88 (بتصرف)**

عبد الجليل التميمي،" وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر" تونس: منشورات المجلة التاريخية المغربية، العدد 5، ص 10.

[5] Tableau de la situation des établissements francais, année 1837, **ناصر الدين سعيدوني، دراسات..، مرجع سابق،ص90**

تنفق على أشغال الصيانة وسير الخدمات، بينما الفائض فكان يوجه لإنشاء الزوايا والمساجد وغيرها.

4-أوقاف مؤسسة بيت المال: ويديرها امين مال ما كان يسمى بالعثماني البيت مالجي ،وكانت لها وظيفة سياسية واجتماعية مثل توزيع الخيرات كل خميس على 200 فقير وتخصيص جزء لتحير اسرى المسلمين عند النصارى تولت هذه المؤسسة إعانة أبناء السبيل واليتامى والفقراء والأسرى، وكانت تتصرف في الغنائم التي تعود للدولة، كما اهتمت بشؤون الخراج وحرصت على شراء العتاد، بالإضافة إلى أنها اضطلعت بمهمة إقامة المرافق العامة من طرق وجسور وتشييد أماكن العبادة من مساجد وزوايا[1].أوكلت لمؤسسة بيت المال أيضا وظيفة التكفل بالأملاك الشاغرة التي لم يكن لها ورثة، حيث كانت تضعها تحت تصرف الخزينة العامة باعتبارها أملاك جماعة المسلمين (ملك عام)، كما تولت تصفية التركات والحفاظ على ثروات الأموات من فقراء وأبناء السبيل ومنح بعض الصدقات للمحتاجين، وهذه المهام الأخيرة هي التي أصبحت تشتهر بها وتختص بها أواخر العهد العثماني[2].
وأشرفت مؤسسة بيت المال أيضا على الأوقاف الأهلية التي توفّي عنها أصحابها بدون عقب، واستوجب إرجاعها إلى المؤسسات الدينية الموقوفة عليها، وذلك حتى تتم الإجراءات المتعلقة بتنفيذ مضمون أحكام الوقف والعمل بوصية صاحب الوقف[3].

هذه المؤسسة كانت تتمتع بالاستقلالية عن الإدارة العامة (البايلك)، وكانت مطالبة بدفع مساهمة شهرية تقدر بـ (700 فرنك) لخزينة الدولة، وتغطية نفقات الفقراء، والتكفل بأجرة القاضي والعدول وبعض العلماء التابعين لبيت المال[4].

5-اوقاف الجند والثكنات :رغم ان البعض يصنفها بالاوقاف التقنية او غير الدينية الا ان نشاتها كانت دينية بدافع اعانة عابري السبيل وحفر العيون والابار وصيانتها وكان لها وكلاء خاصين وقد اهتم العثمانيون كثيرا بالعيون التي سميت عندهم بالسبيل وكثيرا ما ارتبطت باسمائهم مثل عين صالح وبئر مراد رايس و غيرهما. الأوقاف، ويقوم عليها وكلاء وشواش يعرفون بأمناء الطرق والعيون والسواقي..[5]

---

[1] Godin F, le regime foncier de l'algerie, in l'ouvre de la France en algerie, collection du centenaire de l'algerie, 1830,1930

ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق ، ص95

[2] نفس المرجع، ص95،96.

[3] نفس المرجع، ص95، 96

[4] سعيدوني المرجع السابق ص95،96

[5] نفس المرجع، ص100 .

6-مؤسسة سبل الخيرات:تعود مؤسسة سبل الخيرات في الجزائر الى القرن السادس عشر ويرجعها بعض الكتاب الى سنة 1584م على يد شعبان باشا ، وكانت تشرف على ثمانية مساجد حنفية (الجامع الجديد1660، جامع سفير او صفر 1534وزاويته، جامع دار القاضي، مسجد كتشاوة1694، جامع شعبان باشا1694، جامع الشبارلية1778، جامع حسين داي1654، مسجد علي خوجة الموجود بحصن القصبة..،)[1] كما كانت تشرف على عدة مشاريع خيرية عامة، كإصلاح الطرقات، وإجراء القنوات للري، إعانة المنكوبين وذوي العاهات، تشييد المعاهد العلمية، شراء الكتب ولوازم طلبة العلم،...[2]ويعود امر التصرف في أملاك سبل الخيرات الى القاضي الحنفي الذي يقوم بالصلاة ويتولى الإفتاء بالجامع الجديد الذي تأسس سنة 1660م وكانت مؤسسة سبل الخيرات من اهم المؤسسات لدى السلطة وكانت تعيل خدمة 88 طالبا ملحقا بالجامع وثروتها تمثل ثلاثة ارباع الأوقاف العامة

7-أوقاف أهل الأندلس:
أسس الوافدون من عرب الأندلس مسجدا جامعا لهم سنة 1033 هـ 1633وخصصوا له أوقافا عديدة، ذلك أنهم تملكوا أراض كبيرة بفحص الجزائر[3]، وكانت أوقاف هذا الجامع داخل وخارج المدينة، حيث خصصت لتنفق على شؤون العبادة به ومساعدة الفقراء من الأندلسيين العرب الوافدين، وكان يشرف على هذه الأوقاف وكيل يدعى "وكيل الأندلس".
وتذكر الدراسات أن أوقافهم فاقت (40) ملكية مستغلة بالإضافة إلى تخصيص ما يساوي (61) مردودا سنويا، إلا أنها تلاشت بعد تهديم زاوية الأندلس سنة 1841 م، وبلغت أوقافهم بالفرنك الذهبي ما يساوي 408072 فرنك سنة 1837م[4].

8-**أوقاف الاولياء والأشراف:** كانت لها أوقاف عديدة ينفق ريعها على زاوية خاصة بهم شيدها "الداي محمد بقطاش" سنة 1709 م وكان لها وكيل خاص بها يشرف عليها يعرف باسم "نقيب الأشراف"[5].

- **9-أوقاف المرابطين والمعوزين من الجند:** أوقافهم كانت بمدينة الجزائر وفحصها، وتوزعت على تسعة جهات من بينها ضريح" سيدي عبد الرحمن

---

[1] أنظر: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ط3، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص 425،424
وانظر أيضا: ناصر الدين سعيدوني، دراسات ...، مرجع سابق، ص 88.
[2] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص 424، 425
[3] فحص الجزائر: كان ينقسم إلى 3 جهات: باب الجديد، باب عزون، باب الوادي. أنظر: ناصر الدين سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، 97، 98.وكلك رسالة ريف الجزائر،وما تعلق من دراسة حول فحوص الجزائر ونواحيها خلال العهد العثمتاني.
[4] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 236، 238.، وانظر أيضا: عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ص 428، 429.
[5] ناصر الدين سعيدوني، المرجع أعلاه، ص97، 98 (بتصرف).

الثعالبي" الذي كان يحضى بـ 69 وقفا حسب إحصاء سنة 1834م، وكان يصرف مدخولها على إعانة بعض المحتاجين من سكان الجزائر والباقي يصرف على العاملين بزاوية "سيدي عد الرحمن الثعالبي"[1].
- وبالقبائل وجدت اوقاف سيدي علي بن موسى(اشجار من الزيتون والتين) وبتلمسان اوقاف سيدي بومدين
والملاحظ أن ظاهرة الوقف في العهد العثماني يمكن أن نستنتج منها ما يلي:

إن هذه الظاهرة ليست وليدة العهد العثماني، بل أن هنالك وثائق مؤرخة في (966هـ/1500م) تخص أوقاف " سيدي أبي مدين" بتلمسان، وبالتالي فتاريخ الأوقاف في الجزائر يرجع إلى ما قبل العهد العثماني[2].
هذه الظاهرة (الوقف) توسعت بشكل كبير خلال العهد العثماني في الفترة الممتدة من أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.
من الأوقاف التي كانت بارزة خلال العهد العثماني هي الوقف الأهلي.
كانت الأوقاف تدرّ عوائد هامة ساعدت العثمانيين على ضمان رعاية خاصة لأمر الدين والعلم والثقافة، بالإضافة إلى رعاية عدد كبير من المرافق العامة.
الميزة في صرف إيرادات الأوقاف أنها كانت تهتم بالفقراء والمساكين والمحتاجين عامة بما فيهم عابري السبيل (ابن السبيل).

---

[1] **J.Busson jensens, op cit, p35.**

ناصر الدين سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، ص 99 (بتصرف)

[2] **تنص وثيقة وقف سيدي أبي مدين بتلمسان على أوقاف: مسجد ومدرسة سيدي أبي مدين كانت تناهز 23 ملكا عقاريا داخل** تلسمان.